لمحات تاريخية من القصص الإخباري والقرآني لعاد وثمود

د . محمد امحمد سالم ـ كلية الآداب الأصابعة ـ جامعة الجبل الغربي

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام .

أما بعد

إن أفضل ما يقوم به الباحث من عمل ، هو كل ما كان له صله بكتاب الله وسنة رسوله ، لما فيهما من عظات وعبر نحن في أمس الحاجة إليها ، لكوننا ابتعدنا عن الطريق القويم بعدم تدبرنا ، وتمعننا في الكون حتى ندرك عظمة الخالق جل علاه ، ونشكره على نعمه التي أنعم الله بها علينا . ومن هذا الباب كان هذا البحث الذي يتحدث عن قوم عاد وثمود الذين تكرر ذكر اسمهم في عدد من سور القرآن الكريم والأحاديث الشريفة وفي كتب التاريخ ، وصار يضرب بهم المثل في جحودهم ونكرانهم لنعم الله التي أنعم الله بها عليهم ، ثم ما حل الله بهم من عقاب شديد ، بسبب غضب الله عليهم ، لعكوفهم على عبادة الأصنام ، وتركهم عبادة الله ، وتكذيبهم لرسلهم . وقبل الحديث عن هاتين القبيلتين لابد من الإشارة إلى القبائل العربية التي استوطنت شبه الجزيرة العربية ، وكان لها ذكر وتصدر في كتب التاريخ والقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .

يرى بعض المؤرخين والإخباريين أن العرب القدماء انقسموا إلى قسمين هما : العرب العاربة ، والعرب المستعربة ، فالعرب العاربة هم الذين ينتسبون إلى جدهم قحطان الذي قيل إنه كان أول من تكلم العربية ، والعرب المستعربة هم الذين ينتسبون إلى سيدنا إسماعيل υ الذي أخذ العربية من قبيلة جرهم ، التي نزلت مكة بعدما استأذنت من هاجر زوج سيدنا إبراهيم عليهυ للإقامة بها (1). وكان من ضمن هؤلاء الأقوام التي تنتمي إلى العرب العاربة: عاد ، وثمود ، وطسم ، وجديس وجرهم ، والعماليق ، الذين انقطعت أخبارهم ومحيت آثارهم ، كما يتبين لنا من هذا البحث الذي يتحدث عن قوم عاد وثمود .فمن هم قوم عاد وثمود ؟ وأين كانوا يعيشون ؟ وما أسباب نكراهم وجحودهم لنعم الله ؟ وكيف كانت نهايتهم ؟.

1) قوم عــاد :

ينسب العاديون إلى عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح (2)، وهم من العرب العاربة الذين كانوا

يسكنـون الأحقاف ، وهي جبال الرمل التي تقع بين اليمن وحضرموت على ساحل بحر العرب ، كانت تعرف بعالج أو بالشحر (3) ، وكان الوادي الذي ينزلون به يسمَّى مغيثاً .

يقسم بعض المفسرين والإخباريين عاد إلى عاد الأولى ، وعاد الثانية استناداً إلى قولـه تعالى : [وَأَنهُ أَهْلَكَ عَاداً ٱلأولَى] (4). ولكن الأستاذ محمود عرفه في كتابه العرب قبل الإسلام ، يفند رأي من قال بعاد الثانية استناداً إلى هذه الآية ، فيقول إن المراد هو البعد الزمني والتاريخي بين قوم عاد وثمود ، لأن ثمود جاءت بعد عاد ، وأنه لا وجود لقبيلتين باسم عاد ، بل قبيلة واحدة ؛كما أنه لا توجد آية تشير إلى عاد الثانية(5) ، وربما كان المقصود قبيلة ثمود التي كان اسمها كثيراً ما يقترن بعاد ، وفي الحقيقة أنه مهما اختلفت الآراء بين المفسرين والإخباريين والباحثين بهذا الشأن ، فإن ما يهمنا من هذا الأمر هو أمر عاد المذكورة في القرآن الكريم .

تشير بعض المصادر إلى أن العاديين كانوا يسكنون الخيام ذات الأعمدة الضخمة ، وقيل بل كانوا يسكنون البنيان ، قال تعالى: [أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ ٱلعِمَادِ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلبِلادِ] (6). ويرى بعض المفسرين أن إرم هو اسم أبيهم ، وبعضهم الآخر يرى أنه اسم القبيلة أو البلدة التي كانوا يعيشون فيها. وكان خبر هؤلاء القوم مشهوراً في بلاد العرب ، حيث ظلت أخبارهم تنقلها الأجيال حتى عهد النبي ρ . وهناك من يرى أن إرم هو اسم مدينة دمشق ، أو مدينة الإسكندرية ، وذهب بعضهم الآخر أنها مدينة تقع في اليمن ، ونسبوا بناءها إلى أحد أبناء عاد ، كان يدعى شداداً (7).

ويعلق ابن خلدون على أقوال هؤلاء الإخباريين والمفسرين بقوله إنهم جعلوا اسم إرم مدينة ، قام شداد بن عاد ببنائها عندما سمع بوصف الجنـة ، وخلص له الملك بعد مقتل أخيه شديد ، ونقلوا عن شداد قوله :« لأبنينَّ مثلها . فبنى مدينة إرم في صحاري عدن في مدة ثلاثمائة سنة ، وكان عمره تسعمائة سنة ، وأنها مدينة عظيمة قصورها من الذهب ، وأساطينها من الزبرجد والياقوت ، وفيها أصناف الشجر والأنهار المطردة . ولمَّا تم بناؤها سار إليها بأهل مملكته ، حتى إذا كان منها على مسيرة يـوم

وليلة ، بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا كلهم ، ذكر ذلك الطبري والثعالبي والزمخشري وغيرهم من المفسرين » (8). وهذه المدينة لم يسمع عنها خبر ، ولا ذكرها أحد من الإخباريين أو من غيرهم من الأمم الأخرى ، أو دلت عليها المكتشفات الأثرية الحديثة ـ حسب علمنا حتى الآن ـ . ويرى ابن خلدون أن هذه الأخبار هي عبارة عن خرافات ، ليس لها دليل يؤكدها ، أو أثر يبينها . ولا شك أننا نتفق مع ابن خلدون فيما ذهب إليه ؛ لأنه ليس من المعقول أن تبنى قصور المدينة من الذهب والزبرجد والياقوت ، وإنما هو الخيال الذي كان يطلقه الرواة والإخباريون ، وهو ليس غريباً على الأمم والأقوام القديمة التي كانت تغلف الأعمال الجليلة ، أو الأشياء التي يصعب عليهم تفسيرها ، أو الشخصيات المتميزة في العالم القديم بالأساطير . وأغلب الظن أن إرم هو اسم الجد أو القبيلة ، وليس اسم المدينة كما يظنون .

وقد منح الله قوم عاد أراضي خصبة كانت بها بساتين وزروع ، ونعم كثيرة ، ومنحهم الله إلى جانب ذلك بسطة في الجسم، وقوة في البدن ، وطولاً في القامة ، قال تعالى : [وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصطَةً فَاذْكُرُواْ ءَالآءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ] (9).لكنهم كانوا جفاة عتاة متمردين ،عاثوا في الأرض فساداً ، واقترفوا المنكرات ، وأذل منهم القوي الضعيف ، وبطش الكبير بالصغير ، واتخذوا من الأصنام آلهة لهم ، وهي ثلاثة أصنام : كانت الأولى تسمَّى صدا والثانية صمود والثالثة هرا (10). قال محمد بن إسحاق بن يسار إن سيدنا هود υ بعد أن قضى ثلاثين سنة من عمره ، أخذ يدعوهم إلى عبادة الله ، فكذبوه ، وقالوا من أشد منا قوة وبطشاً ، ثم أخذوا يبنون المصانع لعلهم يخلدون ، قال تعالى : [فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُواْ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُواْ بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ] (11) . ورغم ذلك أخذ سيدنا هود υيدعوهم إلى عبادة الله الواحد القهار ، وينذرهم من عقابه الشديد ، إذا تمادوا في غيهم وطغيانهم ، لكنهم أبوا عليه ذلك ، قال تعالى : [واذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللهَ إِنِي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ] (12). وأخا عاد المذكور في هذه الآية هو هود عليه υ الذي اتهموه بالجنون ، أو أن آلهتهم أصابته بالسوء ، قال تعالى :[قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ إِن نقُولُ إِلاَّ اعْتَراكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُواْ أَنِّ بَرِئٌ ممَّا تُشْرِكُونَ] (13). يخبر الله تعالى أنهم قالوا لنبيهم ، إنك لم تأت بحجة أو برهان على ما تدعيه ، وإننا لن نصدقك ، ونترك

عبادة آلهتنا بمجرد قولك إن اعبدوا الله ، بل إننا نظن أن بعض آلهتنا أصابتك بجنون وخبل في عقلك، ويرد عليهم سيدنا هود υ أنه يشهد الله على براءته من عبادة الأصنام والأنداد . وذكر بعض المفسرين ومنهم محمد بن إسحاق بن بشار أنهم لمّا أصروا على عنادهم وكفرهم وتكذيبهم لرسولهم ، انحبس عنهم المطر ثلاث سنين ، حتى هلك منهم الضرع والزرع ، وكان من عادة العرب ، أنه إذا حل بهم مكروه ، أو أصابهم جفاف ذهبوا إلى بيت الله بمكة يطلبون فيه الفرج ، ومن أجل هذه الغاية خرج منهم وفد يستسقون ، قيل إنه كان مكوناً من سبعين رجلاً ، نزلوا على معاوية بن بكر بظاهر مكة (14). وذكر الإخباريون أنه كان على رأس الوفد : قيل بن عنز والقيم بن هزال بن هزيل وعبيل ابن ضد بن عاد وجهامة بن الخبيرى ولقمان بن عاد ومرثد بن عفير ، وكان الأخير مسلماً يكتم إسلامه (15). ولمَّا وصلوا إلى مكة أقاموا عند معاوية شهراً يشربون الخمر ، ويستمعون إلى غناء الجرادتين (وهما قينتان لمعاوية بن بكر) ، كانتا تنشدان الشعر ، وقد شغلهم ذلك عن قومهم الذين كانوا ينتظرون هذا الوفد ، والنتائج التي ستتمخض عنها رحلتهم إلى بيت الله الحرام . وكان معاوية قد استحى من أن يذكِّرهم بمهمتهم التي جاءوا من أجلها ، فأشارت عليه الجرادتان أن يقول شعراً تغنيانه له يذكرهم بمهمتهم ، فقالتا (16) :

ألا يا قيل ويحك قم فيهم لعل الله يمنحنا غماما
فيسقي أرض عاد أن عادا قد أمسوا لا يبينون الكلاما
من العطش الشديد فليس نرجو به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهم بخير فقد أمست نساؤهم أيامى
وإن الوحش يأتيهم جهارا ولا يخشى لعادى سهاما
وأنتم هاهنا فيما اشتهيتم نهاركم وليلكم تماما
فقبح وفدكم من وفد قوم ولا لقوا التحية والسلاما

وفي أثناء تماديهم في الكفر والمعاصي أرسل الله إليهم الريح ، فخرجت عليهم من واد يقال له المغيث ، وهو الوادي الذي كانت تأتي منه الرياح الممطرة من قبل ، ولذلك لمَّا رأوا السحاب استبشروا به خيراً ، قال تعالى :[فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لا يُرَى مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ] (17) . قال

ابن عباس إن العارض الذي ذُكِر في هذه الآية هو السحاب الذي يعترض الأفق (18)، ولمّا قالوا : [فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ] (19)، قال لهم الله : [بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ]. وقال تعالى :[وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ] (20) . وقال تعالى :[فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لا يُنصَرُونَ](21) . وقال أيضاً :[كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنقَعِرٍ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ] (22).

وكان أول من أبصر هذه الريح امرأة من عاد يقال لها (مهد) ، صعقت عندما رأت ما فيها ، فلمَّا أفاقت قالوا لها ماذا رأيت يا مهد ؟ قالت رأيت ريحاً فيها شُهب من نار ، وأمامها رجال يقودونها (23). وقد وصف الله هذه الريح بالريح العقيم ؛ لأنها ريح لا تلقح سحاباً ولا شجراً ، ولا رحمة فيها ولا منفعة ، جاءتهم من الجنوب (24). عن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ρ قال : « نُصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور » (25). والصبا ريح الشمال ، والدبور ريح الجنوب ، وهذه الريح هي التي جاءت لقوم عاد . روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت كان النبيρ إذا رأى الريح قال: « اللهم إني أسألك من خيرها وخير ما فيها وخير ما قبلها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به » (26). وقد وصف الله هذه الريح في آيات أخرى بأنها ريح صرصر ، وريح الصرصر في كلام العرب الريح العاصفة شديد البرودة ، قال أمرؤ القيس (27):

لها عُذرٌ كقرون النساء   رُكِّن في يوم صرصر

وقوله في أيام نحسات ، أي مشؤمات ومتتابعات ، حلت بهم يوم الأربعاء واستمرت سبع ليال وثمانية أيام ، وقيل إن هذه الريح كانت تقلع الأشجار من عروقها، وتهدم البيوت ، وتقلع الناس من بيوتهم ، وصاروا كأعجاز نخل خاوية (28)، ليس لهم من باقية .

إذن هذه هي قصة قوم عاد الذين طغوا وبغوا ، وجحدوا نعمة الله ، وعكفوا على عبادة الأصنام ، وكذَّبوا رسولهم سيدنا هود عليه υ ، فكان من نتيجة ذلك أن حل بهم العقاب الشديد الذي قضى عليهم ، ولم يبق من آثارهم إلا ديارهم الخالية ، وصاروا عبرة لمن يعتبر .

2) قوم ثمـود :

ورد اسم ثمود في المصادر العربية مقترناً مع قوم عاد أو نوح وأصحاب الرس في الغالب ، وأغلب هذه المصادر لم تعطِ صورة متكاملة عنهم ، سواء أحوالهم المعيشية أو الحضارية ، وأغلب ما ذكر عنهم كانت أخباراً مغلفة بالأساطير . أما من أراد معرفة أخبارهم فلابد له أن يتتبع قصصهم في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة ، ليتعرف عليهم من مصادر صحيحة موثوقة . وقد ورد ذكر هؤلاء القوم في عدد من سور القرآن الكريم ، مثل: الأعراف وإبراهيم والحج والفرقان والعنكبوت وغافر وفصلت والنجم والحاقة والفجر .

وقد نسب الإخباريون ثمود إلى ثمود بن عابر بن سام بن نوح عليـه υ (29) ، وهم من العرب العاربـة البائدة ، الذين اشتهروا باسم أبيهم ، وأصبح اسمهم معروفا عنـد بني إسرائيـل في عهد سيدنا مـوسى عليـه υ ، قال تعالى : [وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ ٱللهَ لَغَنيٌّ حَمِيدٌ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمهُمْ إِلاَّ ٱللهُ] (30). وذكر ابن كثير أنه لمَّا كان هؤلاء القوم من العرب فإن بني إسرائيل تجاهلوا أمرهم ، وسكتوا عن خبرهم ، ولم يهتموا بهم (31). لكن هناك بعض الكتابات الكلاسيكية تشير إلى أن اسمهم وجد مكتوباً في النصوص الأشورية التي تعود إلى أيام سرجون الثاني (721 – 705 ق.م) باسم Tamudi أو Thamudi (32) . أما اليونانيون فكانوا يطلقون عليهـم اسم Thamudeni(33).

كان الثموديون يسكنون اليمن في وادي صنعاء الخصب ، كثير الأمطار ، وفير الإنتاج ، ويستدل على ذلك من الكتابات الثمودية التي اكتشفها المنقبون عن الآثار في عدة مناطق ، وكانت تلك الكتابات تشير إلى أنهم كانوا زراعاً وأصحاب ماشية (34)، وربما كانت هجرتهم بسبب ازدياد السكان، أو بسبب صراعات بينهم وبين الحميريين على الأرض ، وكانت الغلبـة فيها للحميريين الذين تمكنوا من إخراجهم إلى الحجاز ، حيث استقروا بالحجر ، وهي منطقة تقع بين الحجاز والشام. قال الأصطخري إن الحجر هي قريـة صغيرة في وادي القرى بها منازل ثمود التي نحتوها في الجبال (35). وكانت الحجر كثيرة الزرع والنخل والعيون ، قال تعالى :[أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا ءَامِنِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ] (36).

ويذكر بطليموس الجغرافي أن منازل ثمود كانت تقع شمال غرب اليمن قرب ساحل بحر القُلْزم (البحر الأحمر) (37)، في المنطقة الجبلية التي تقع في أعالي الحجاز ، وهذا يتطابق مع الروايات العربية التي ترجح أن تكون الحجر المقصودة في القرآن الكريم ، هي التي تقع بالقرب من مكة ، التي كانوا ينحتون فيها بيوتهم ، وهي جبال البحر الأحمر الشرقية التي أشارت إليها الآية الكريمة :[وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ] (38). وتقع في هذه الجبال بئر ثمود التي شربت منها الناقة .

كان الثموديون في رغد من العيش ، وسعة من الرزق ،فلم يحمدوا الله على ما أتاهم من رزق ، فعاثوا في الأرض فسادا ، وعبدوا الأصنام ، مثلما كان يعبد غيرهم من سكان شبه الجزيرة العربية ، وكانت من أهم هذه الأصنام صنم يسمى (صلم) ، كان يرمز له برأس ثور ، وأصنام أخرى تدعى : (ود) و (شمس) و (بعل) و (هبل) و (يغوث) و (اللات) (39). وقد أرسل الله إليهم سيدنا صالحاً يدعوهم لعبادة الله الواحد القهار ، فكذبوه وسفهوه ، وقالوا أنت رجل مثلنا ، فكيف نؤمن بك ونصدقك ؟ . قال تعالى :[مَآ أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ](40)، وقال تعالى :[وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصحَابُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ] (41).

وكان لهؤلاء القوم عيد يخرجون فيه يلهون ، وينحرون ، ويأكلون ، ويشربون الخمر ، وكانوا يحملون معهم أصنامهم ، يقدمون لها القرابين ، ويقيمون أياماً تغني لهم القيان . وكان على رأس هؤلاء القوم جندع بن عمرو صاحب الأمر والنهي فيهم ، وكاهنهم ريان بن صمغة ، وصاحب أوثانهم ذؤاب بن عمرو . وقد خرج معهم سيدنا صالح υ ليجدد دعوته لهم ، لعلهم يعودون إلى رشدهم ، ويعبدون الله ، ويتركون عبادة الأصنام ، فأبوا عليه ذلك ، وقالوا لن نصدقك ، إلاَّ إذا جئتنا بآية . ثم نظروا إلى صخرة عظيمة كانت بالقرب منهم ، وطلبوا منه أن يخرج لهم منها ناقة حمراء شعراء وبراء مهبرجة (42) ، استهزاءً به ، وظناً منهم أنه غير قادر على ذلك . وكان طلبهم للناقة دون سائر الحيوانات حباً في الإبل دون غيرها من الحيوانات ، لكونهم يعيشون في بيئة صحراوية كانت تشتهر بتربية الإبل التي تكون لها الأفضلية على سائر الحيوانات ، كما أنهم كانوا يحتاجون إليها في النقل واللبن واللحم . وطمعاً في إيمانهم طلب منهم سيدنا صالح υ أن يعطوه موثقاً وعهداً أن يؤمنوا بالله إذا حقق لهم ما طلبوه ، ثم أخذ يصلي ويدعو ربه ، وعندئذ تمخضت الصخرة ، وخرجت منها ناقة عظيمة بالوصف الذي طلبوه ، فلما رأى رئيسهم جندع بن عمرو ذلك خرَّاً

ساجداً ، وخرَّ معه بشر كثير من رؤسائهم وعظمائهم (43)، ثم قام فيهم بعض من رؤسائهم فزجروا قومهم عن الإسلام ، فرجع بعضهم ، وهم الذين قال فيهم الحق تبارك وتعالى: [وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَى عَلَى ٱلْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ] (44).

وقيل إن رجلاً من ثمود قال في هذه العصبة (45):

وكانت عصبة من آل عمرو   إلى دين النبي دعوا شهابا
عزيز ثمود كلهم جميعاً   فهب أن يجيب ولو أجابا
فأصبح صالحاً فينا عزيزا   وما بدلوا بصاحبهم ذؤابا
ولكّن الغواة من آل حجر   نالوا بعد رشدهم ذبابا

وكانت الناقة ترعى الشجر ، وتشرب الماء . ثم أوحى الله إلى سيدنا صالح υ أن يقسم الماء بينها وبين قومه ، بحيث تشرب الناقة يوماً ، ويشربون يوماً آخر ، وكانوا في اليوم الذي لا يرِدُون الماء يشربون لبنها ، ويدَّخرون ما يريدون منه إلى اليوم الآخر ، قال تعالى : [وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ] (46). يقول وهب بن منبه عن الناقة : « ... ثم تصدر من غير الموضع الذي وردت منه . وإذا ظهر الصيف طلعت ظهر الوادي ، فهربت منها المواشي والدواب من البقر والغنم والوحوش ، فهبطت المواشي إلى بطن الوادي في برد شديد وحر شديد ، وكانت الدواب تنفر منها وتخافها . وقد أضر ذلك بالمواشي وذلك للبلاء الذي أراده وقدره عليهم . ولما كان ذات يوم أصبحت الناقة في بطن الوادي ومعها (سقب) لها على مثل خلقها وهيئتها ...» (47).

وقد خاف سيدنا صالح υ من سفهاء قومه أن يتعرضوا لها فحذرهم من ذلك ، لكي لا يحل عليهم غضب الله ، ويأخذهم العذاب الأليم ، قال تعالى :[وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ ٱللهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ ٱللهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ](48). لكن بعض الأفراد من ثمود لم يعجبهم أمر الناقة ومشاركتها لهم في المرعى والماء ، وكان من أشد هؤلاء عداوة للناقة وسيدنا صالح امرأة يقال لها عنيزة (أم غنم) ، كانت تملك ماشية وإبلاً وغنماً كثيرة ، وكانت لها بنت من أجمل بنات العرب تسمَّى الرباب ، وأخت تسمّى صدوف ، وقد حاولت هاتان المرأتان دعوة عدد من رجال القبيلة للتعرض للناقة ، ولكنهم رفضوا ، عدا رجلين كان أحدهما يدعى

مصدع بن مهرج ، والآخر قدار بن سالف ، وهو الذي أغرته بالزواج بابنتها الرباب ، كما أغرت آخرين إذا تمكنوا من عقر الناقة (50). وقد خرج قدار ومصدع وأصحابهما لعقرها فكمنا لها في الشجر ، ولما اقتربت منهما رماها مصدع بسهم ، وحمل عليها قدار فضرب عرقوبها ونحرها . أما سقبها فقد هرب إلى الجبل ورغا ثلاثاً (51) ، ثم دخل الصخرة التي خرجت منها الناقة.

ولما سمع سيدنا صالح υ بما فعله هؤلاء الأشرار بشر ثمود بأن عمرهم لن يتجاوز ثلاثة أيام ، قال تعالى :[فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ] (51). وقال لهم أن علامة حلول العذاب بكم أن تصفر وجوهكم في اليوم الأول وتحمرَّ في الثاني وتسود في الثالث وفي اليوم الرابع صُعِقوا وماتوا، ولم يبق منهم أحد ، قال الحق تبارك وتعالى : [فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ] (52). وقال بعض المفسرين (53) إن الرجفة هي الزلزلة التي تأخذ الألباب ، أو هي الصيحة القوية التي جعلتهم جثثاً هامدة ، ليس لهم من باقية . وكان الثموديون قد حل بهم العقاب نتيجة لطلبهم هذه الآية التي كانت سبباً في هلاكهم ، ولهذا حذر رسول الله ρ في الحديث المروي عن عبد الرزاق بن معمر عن جابر السؤال عن الآيات فقال : « لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح ، فكانت (أي الناقة) ترد من هذا الفج ، وتصدر من هذا الفج ، فعتوا عن أمر ربهم فعقروا . وكانت تشرب ماءهم يوماً ، ويشربون لبنها يوماً ، فعقروها فأخذتهم صيحة أهمد الله من تحت أديم السماء منهم ، إلا رجلاً واحداً كان في حرم الله » (54). ولما مر النبي ρ وأصحابه بالحجر في غزوة تبوك ، أمرهم : « ألاَّ يشربوا من بئرها ، ولا يستقوا منها « فقالوا قد عجنا منها واستقينا ، فأمرهم أن يطرحوا ذلك العجين ، ويُهريقُوا ذلك الماء » (55). وهذا دليل على أن هذا المكان ، هو الذي حل به غضب الله ، وهو الذي شهد فناء ثمود الذين بغوا وطغوا ، وأفسدوا في الأرض ، وعصوا رسولهم ، بدلاً من طاعته ، والشكر لله الذي أنعم عليهم بنعم كثيرة . وهذا حال الأمم السابقة التي كانت تنال جزاءها في الدنيا قبل الآخرة ، مثل قوم عاد وثمود ولوط . أما أمة محمد فقد أجل الله لها العقاب والثواب إلى اليوم الآخر، عسى أن يتوب الإنسان ، ويرجع عن المعاصي .

ولا شك أن في هذا القصص عبرة لأولي الألباب الذين يؤمنون بآيات الله الظاهرة للعيان ، التي لا تخفى عن كل إنسان ذي بصيرة يتفكر في خلق السموات والأرض ، كما ينبغي عليه ألاَّ يسأل عن الآيات ؛ لأن في ذلك إنكار لها ، ومعاندة لله ، والشك في

وجوده حتى لا يشدد الله علينا ، كما شُدد على بني إسرائيل عندما أخذوا يسألون عن البقرة ، وكلمَّا سألوا عنها زاد التشديد عليهم . ويجب أن يؤمن الإنسان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وقضائه خيره وشره ، وأن يحمد الله على نعمه الكثيرة ، وهذا هو الإيمان الذي يقود إلى الجنة التي وعد بها المتقون.

الهوامش :

1) المسعودي ، مروج الذهب ، تحق : محمد محي الدين عبد الحميد ، جـ 1 ، 1966م ، ص 385.
2) نفسه ، ص 386.
3) أبو إسحاق أحمد النيسابوري ، قصص الأنبياء المسمَّى العرائس ، مكتبة الجمهورية العربية ، ص 66.
4) النجم ، آية: 50.
5) محمود عرفة ، العرب قبل الإسلام ، ط 1 ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، 1995م ، ص 30.
6) الفجر ، آيات : 6، 7 ، 8 .
7) ديزيرة سقال ، العرب في العصر الجاهلي ، ط 1 ، دار الصداقة العربية للطباعة والنشر والتوزيع ، 1995م ،
ص 12.
8) ابن خلدون ، مقدمة ابن خلدون ، ط 1 ، دار الفكر العربي ، بيروت ، 1997م ، ص 12.
9) الأعراف ، آية: 69.
10) ابن كثير ، البداية والنهاية ، تحق : أحمد عبد الوهاب فتيح ، مج 1 ، جـ 1 ، دار الحديث ، القاهرة ، 1998م ، 124. وانظر ، محمود عرفة، ص 18.
11) فصلت ، آية: 15 .
12) الأحقاف ، آية : 21.
13) هود ، آية: 53 ، 54 .
14) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ص 130.
15) أبو إسحاق النيسابوري ، ص 66. وانظر ، أبو الفداء ، تاريخ أبي الفداء المسمَّى المختصر في أخبار البشر ، جـ 1 ، ط 1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ـ لبنان ، 1997م ، ص 26.
16) ابن كثير ، قصص الأنبياء ، تحق : عبد القادر أحمد عطا ، جـ 1 ،المكتبة الإسلامية ، بيروت ـ لبنان ، ص 162.
17) الأحقاف ، آية: 24 ، 25.
18) القرطبي ، جـ 16 ، ص 206.
19) الأعراف ، آية: 70.
20) الذاريات ، آية: 41، 42.
21) فصلت ، آية : 15 ، 16 .
22) القمر ، آيات : 18 ـ 21 .
23) أبو إسحاق ، ص 68.
24) القرطبي ، جـ 5 ، ص 50.
25) صحيح البخاري/1035 .
26) الترمذي/3449 .
27) القرطبي ، جـ 5 ، ص 347.

28) نفسه ، ص 136.
• الثَّمْد والثَّمَد بتسكين الميم وفتحها الماء القليل. انظر ،محمد خاطر بيك ، مختار الصحاح ، دار الفكر ، 1972م، ص 86.
29) المسعودي ، ص 386. وانظر ، ابن كثير البداية والنهاية ، جـ 1 ، ص 137.
30) إبراهيم ،آية : 8، 9 .
31) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ص 137.
32) جواد علي ، ص 326.
33) ديزيرة سقال ، ص 32.
34) جواد علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، جـ 1 ، ط 3 ، جامعة بغداد ، 1993م ، ص 324.
35) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مج 2 ، دار صادر ـ بيروت ، 1977م ، ص 221.
36) الشعراء ،آيات : 146 ـ 148.
37) جواد علي ، ص 325.
38) الفجر ، آية : 9.
39) جواد علي ، ص 331.
40) الشعراء ، آية: 154.
41) الحجر ، آية: 80.
42) مهبرجة : هي التي لها ضجيج ، ورغاء شديد ، ولبناً سائغاً .
43) وهب بن منبه ، كتاب التيجان في ملوك حمير ، تحق ونشر : مركز الدراسات والأبحاث اليمنية ، ط 2 ، الجمهورية العربية اليمنية ، صنعاء ، 1437هـ ، ص 386.
44) فصلت ، آية : 17.
45) أبو إسحاق ، ص 73.
46) القمر ، آية: 28.
47) وهب بن منبه ، ص 388.
48) هود ، آية: 64.
49) وهب بن منبه ، ص 391.
50) قال بعض المفسرين أن سقمها (ولدها) كان رغاؤه بعدد أيام حياتهم الباقية. انظر ، القرطبي ، جـ 7 ، ص 242،241.
51) هود ، آية: 65.
52) الأعراف ، آية : 78.
53) محمد الصابوني ، صفوة التفاسير ، مج 1 ، دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، 1976م ، ص 455.
54) إسماعيل بن كثير ، تفسير القرآن العظيم ، جـ 3 ، ط 1، مكتبة الصفا القاهرة ، 2002م ، ص 285.
55) صحيح البخاري/3378.